مقـــدمـــة

لا أشك فى أن كثيرين ممن قرءوا عنوان هذا الكتاب قد اعترتهم الدهشة وتساءلوا : هل كانت توجد مستوطنات يهودية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . وإذا كانت قد وجدت فأين كان مكانها ؟ ومتى أقيمت ؟ وكيف استؤصلت ؟ ولماذا استؤصلت ؟

والواقع أن الأمر فيما يتعلق بموضوع المستوطنات اليهودية فى الحجاز يشوبه الكثير من الإبهام وعدم الوضوح ، باعتباره جزءاً من تاريخنا العربى والإسلامى ؛ ولذلك فأنا لا أستنكر أن يتساءل الناس على هذا النحو ؛ لأننى كنت ـــ إلى عهد قريب ـــ مثلهم لا أعرف إلا القليل عن هذا الموضوع ، على الرغم من كثرة قراءاتى فى كتب التاريخ والسيرة والتفسير ، إلى أن شرعت فى إعداد دراسة أرد بها على مزاعم بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين بخصوص زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية النضيرية ، التى كانت يهودية قبل أن يتزوجها ، مما فرض علىَّ أن أبحث فى غزوة خيبر وماحدث فيها ؛ نظرا لأن السيدة صفية كانت قد وقعت فى السبى فى هذه الغزوة . فإذا بى أجد نفسى مضطرا إلى العودة إلى ماقبل ذلك ، إلى غزوة بنى النضير ، قبيلة السيدة صفية التى كان أبوها زعيما لها وقائدا . وقادتنى غزوة بنى النضير إلى الوراء لأدرس غزوة بنى قينقاع اليهود أيضا ، ثم إلى الأمام لأدرس غزوة بنى قريظة ، ومعها غزوة الأحزاب .

وهكذا وجدت نفسى غارقا فى الموضوع الأوسع ، موضوع الوجود اليهودى فى الحجاز ، بل فى الجزيرة العربية كلها . ومضيت أبحث فى الكيفية التى دخلوا بها ، ومتى ؟ وكم كان عددهم ؟ وأين استوطنوا ؟ وماذا فعلوا بأصحاب البلاد ؟ ليقودنى البحث إلى حقائق غريبة وعجيبة فى آن واحد ، منها أن اليهود لم يكونوا فى المدينة وخيبر فقط ، بل كانوا فى مناطق أخرى كثيرة تربو على العشر ؛ ذلك لأنهم — كما هو شأنهم دائما — ما إن اجتازوا حدود الجزيرة العربية مع فلسطين حتى انتشروا فى الحجاز بطريقة سرطانية ، ينشئون المستوطنات فى المواقع الاستراتيجية ، وذات الأهمية الاقتصادية فى آن واحد ، ويقيمون الحصون القوية ويقتلون السكان العرب أو يطردونهم أو يسخِّرونهم لأداء الأعمال الشاقة نظير أجور تافهة .

ولم أجد فى كتب التاريخ ذِكراً للطريقة التى دخل بها اليهود إلى الحجاز ، وهل دخلوه عنوة وبواسطة الحرب ، أو دخلوه متسللين مهاجرين بعد أن أعمل الرومان فيهم سيوفهم فقتلوا منهم مئات الألوف ، فاستدروا عطف العرب بالدموع والتوسلات ، كما فعلوا فى فلسطين بعد ذلك بألفى عام ؟.

أما الذى وجدته بشأن تصرفاتهم بعد أن استقروا واطمأنوا ، فيشبه إلى حد بعيد ما فعله اليهود ويفعلونه فى فلسطين فى الأربعينيات من هذا القرن وإلى الآن ، مما جعلنى أقول : ما أشبه الليلة بالبارحة !! وهذا صحيح : ففى البارحة التى يفصلنا عنها قرابة العشرين قرنا استغل اليهود اختلاف العرب وتناحرهم وتفرقهم ،

ففرضوا سيطرتهم عليهم وأخضعوهم لهم واستغلوهم ، بل وأذلوهم ، كما سوف نرى . واليوم يفعلون نفس الشيء ، إلى أن قدر للبارحة أن تنتهى ، وندعو الله العلى القدير أن ينتهى اليوم كما انتهت البارحة . وذلك لن يكون إلا إذا فعلنا كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى لم ترهبه دعايات اليهود ولم يُخفْه استظلالهم بحماية إحدى الدولتين العظميين فى زمنه ، وهى دولة فارس ، ولم يقف مكتوف اليدين أمام محاولات المنافقين والانتهازيين ، ولم ترهبه قوة اليهود الحربية ، وإنما اعتمد على الله ، وتحت قيادة واحدة ، ومضى فى طريقه بإرادة قوية وعزيمة لا تلين ؛ ليستأصل المستوطنات اليهودية الواحدة بعد الأخرى دون أن يساوم أو يفاوض فيوقع نفسه فى حبائل اليهود ويتوه فى دروب ألاعيبهم .

والواقع أن الجهد الذى بذلته فى هذا الكتاب لم يخرج عن حدود جمع ما تناثر فى كتب التاريخ والتفسير من معلومات تتعلق بموضوعنا ، والتنسيق بينها ، وتحليل وتفسير ما وجدته منها بحاجة إلى تحليل أو إلى تفسير ، وتمحيص ما غمض أو استبهم ، واستيفاء مانقص ، وبسط ماأجمل ، وبخاصة ماكانت له علاقة بالغزوات والمعارك التى لم يحظ الجانب الهام منها ، وهو النشاط العسكرى ، باهتمام المؤرخين المسلمين ، ناهيك عن المفسرين ، فجاء الكلام بشأنها ناقصا إلى درجة معيبة جعلته يبدو كما لو كان نزهة أو هجمة عشوائية تسودها الفوضى وينقصها التخطيط .

ليس ذلك وحسب ، بل إن كتب التاريخ الإسلامى تركز بشكل

واضح على المرحلة المكية من الدعوة بشكل يوحى للقارىء أن معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم قد انتهت أو كادت بهجرته إلى المدينة . والغريب فى الأمر أن وسائل الإعلام ـــ وبالذات الإذاعة المسموعة والمرئية ـــ تركز على هذه المرحلة ، وتظهر المرحلة المدنية كما لو كانت مرحلة استرخاء وراحة وطمأنينة ، مما جعل الغالبية العظمى منا نحن المسلمين نظن أنه بالهجرة إلى المدينة خفت متاعب المسلمين بدرجة كبيرة وأحسوا بالطمأنينة والأمن بعد أن أصبحوا بين ظَهْرانَى الأنصار ، فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك تماما : ففى المدينة واجه الرسول صلى الله عليه وسلم متاعب من نوع جديد ، كما أن إحساسه بالطمأنينة والأمن كان شبه منعدم لأسباب عديدة : منها أن الذين أسلموا من الأوس والخزرج كان عددهم ضئيلا للغاية بالمقارنة مع الأعداد الكبيرة للقبيلتين ، كذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمن نشوب الصراع فى أى وقت بين هاتين القبيلتين ، وأن يذهب كل مابذله من أجل القضاء على أسباب الخلاف بينهما سُدًى ، وأكبر دليل على صحة هذا حالنا الآن عرب القرن العشرين ، فإننا مانكاد نلتقى إلا وسرعان مانفترق ، مما يجعل جمع الرسول لكلمة العرب معجزة بحق ، ندعو الله أن تتكرر .

كذلك فإنه كان يوجد بين الذين أسلموا من أفراد القبيلتين كثير من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام لسبب أو لآخر ، فى حين أنهم يضمرون الكفر ، أو على الأقل يشكّون فى صدق النبوة ، وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول . ومن الأسباب أيضا ، بل

على رأسها ، اليهود الذين أقاموا فى « يثرب » منذ زمن بعيد وكانت لهم بها ثلاث قبائل كبرى هى بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، والتى كان عدد أفرادها يتجاوز الخمسة عشر ألف فرد ، منهم حوالى الألفين والخمسمائة من المقاتلين الأشداء ، ولهم حصون منيعة وسلاح وعتاد جيدان ، فضلا عن الثروة الطائلة والتأثير الشديد فى العرب ، وماكان لهم من تحالفات مع الأوس والخزرج على السواء .

وفضلا عن كل ذلك فقد كانت قريش ومعها القبائل العربية الأخرى لا تكف عن مهاجمة المدينة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه خطرا أو تهديدا مزدوجا ، من الداخل ومن الخارج . وعادة فإن التهديد الخارجى يكون أهون من التهديد الداخلى ؛ حيث إنه يمكن رصد الأول وتوقعه قبل وقوعه واتخاذ مايلزم لمواجهته ، فى حين أن الثانى أى الداخلى يأتى بغتة ، ويكون أخطر لأنه يؤدى إلى شق الجبهة الداخلية ، وبالتالى إصابتها بالضعف فالانهيار . فما بالنا إذا تزامن التهديدان ، الخارجى والداخلى ، فأحدق الأول من الخارج ، وتفجر الثانى من الداخل ، إنها الكارثة التى لا يعلم مداها إلا الله . ومع ذلك يزعم بعض من لا عقل لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتزوج ليستمتع بالنساء !! وكأن كل ماذكرناه من أخطار لاوجود لها ، وكأن الرجل ليس رسولا يتلقى الوحى فيحفظ عنه ثم يُعلِّم أتباعه ، ويدعو من لم يتبعوه بعد ، وينظم شئون الجماعة ، ويشرف على مصالحها ، ويتعهدها بالنصح والتوجيه والإرشاد . ولو أنه كان كما يقولون مااستطاع أن ينجح فى أى عمل قام به ، ولعجز

عن استئصال المستوطنات اليهودية ، وللجأ إلى التوسل إلى هذه الدولة أو إلى تلك : لكى تفعل له شيئا يحفظ به ماء وجهه .

وهكذا نرى أن أحداث الماضى ليست مُنْبَتَّةَ الصلة بالحاضر الذى نعيشه ، وإنما هى مرتبطة به أشد الارتباط ، فهاهم اليهود أعداء الله وأعداء الإسلام يعاودون الكرة ، فيعيدون إقامة مستوطناتهم فى فلسطين بمساعدة الغرب الصليبى ، ويسعون إلى إقامة دولة كبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، يكون المسلمون فيها عبيدا لهم وأتباعا أذلاء ، وتساعدهم الدول الصليبية نكاية فى الإسلام وأهله . « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » [1]

ولعل الذين هللوا لمعاهدة « كمب ديفيد » واعتبروها نصرا لـ (مصر) قد أدركوا أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما هو نذير بالهزيمة الساحقة الماحقة التى يدبر اليهود وغيرهم لإنزالها بنا جميعا مصريين وغير مصريين ؛ ذلك لأن اليهود ــ ومن ورائهم الغرب الصليبى ــ لن يهدأ لهم بال أو يطمئن خاطر إلا بعد أن يقضوا على الإسلام ويجعلوا من المسلمين قطيعا ذليلا تقوده إسرائيل ، التى سيمتد ملكها من النيل إلى الفرات تنفيذا للنبوءة التى يؤمن بها الصليبيون أيضا مثلما يؤمن بها اليهود ، ولِمَ لا وكتابهم المقدس يتكون من التوراة والإنجيل معا ؟

---

(١) تكوين ، الإصحاح ١٥ ، فقرة ١٨

وليس بخافٍ على أحد أن القضاء على الإسلام يقتضى القضاء على مقدساته ، وفى مقدمتها الكعبة ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والمسجد الأقصى فى القدس . ولقد بدأ اليهود بالأخير فاستولوا عليه عام ١٩٦٧ تحت بصر المسلمين وسمعهم . وأخذوا منذ ذلك الحين يقومون بأعمال تخريبية ضد المسجد الأقصى ، فأشعلوا فيه النار مرات ، وحفروا تحته ، ومايزالون يحفرون ، وكل ذلك بقصد هدمه وإقامة معبدهم مكانه . وإذا كانت بعض الاعتبارات قد حالت دون ذلك ، فى الوقت الراهن ، فإن هذه الاعتبارات سوف تضعف ثم تزول فى وقت قريب ، وبالتالى يقدمون على هدم المسجد الأقصى دون أن يواجهوا مقاومة يعتد بها من جانب المسلمين الذين ستكون جماهيرهم مشغولة بمتابعة إحدى مباريات كرة القدم ، أو منصرفة إلى متابعة أخبار إحدى الراقصات .

أما الحكومات العربية والإسلامية العظيمة فلا بأس من أن تصدر بيانات تشجب فيها ما حدث ، وتستنجد بالحكومات الصديقة فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتى ؛ لكى تتدخل وتمنع إسرائيل الكبرى من هدم المسجد ، وطبعا لن تُخيِّب هذه الحكومات ظن أصدقائها فيها ، ولن تتركهم ليفتضح أمرهم أمام شعوبهم ، وسوف تحتج بدورها وتشجب فى حين أن أيديها ممتدة من تحت الطاولة تصافح أيدى اليهود ، وتشد عليها ، تأييدا وتشجيعا ، بل وتهنئة بتحقق النبوءة وقيام الهيكل .

وبعد ذلك سيأتى الدور على المسجد النبوى بالمدينة ، التى يزعم

اليهود أن لهم حقوقا فيها لا تقل عن حقوقهم فى فلسطين والشام والعراق ومصر . فقد أقاموا فيها زمنا طويلا قبل الإسلام ، وكانت لهم فيها مساكن ومزارع وحصون وأموال استولى عليها المسلمون ، ولا نستبعد أن يخرجوا علينا ، فى الوقت المناسب ، بادعاءات تقول إن المسجد النبوى أقيم على أراض كانت مملوكة لهم ، أو كان عليها بعض معابدهم ، أو مقدساتهم التى غطتها الرمال ، ويكرِّروا مايفعلونه الآن فى القدس من التنقيب تحت المسجد الأقصى توطئة لهدمه . وسوف يفعلون ذلك بسهولة أكبر ، حيث لن يكون للعرب الأشاوس أى وزن أو قيمة بعد نزع سلاحهم والقضاء على قوتهم بتفتيتهم وإضرام نار العداء بينهم وجعلهم يخافون من بعضهم البعض ، ويطمئنون للغرب ولإسرائيل .

وأخيرا وليس آخرا ، أوجه كلمة للواهمين من الإخوة المصريين ، الذين يظنون أن اليهود قد تركوا سيناء نهائيا ، فأقول لهم : أفيقوا من وهمكم قبل أن تنتبهوا فجأة على قعقعة المدرعات وأزيز الطائرات الإسرائيلية على أرض سيناء وفى سمائها ، وعندئذ تمطون شفاهكم فى بلاهة وتزعمون أنكم خدعتم فيما قيل لكم وماسمعتموه ، وهو ماقلتموه من قبل ؛ لأنكم لاتقرءون التاريخ ولاتعملون عقولكم ، وإنما ترددون فى ثقة الجهال مايصل إلى أسماعكم من كلام المنافقين والكذابين دون أن تُمَحِّصوه ، أو لأنكم تجدون فيما حدث مافيه مصلحة لكم . إن سيناء ياسادة لا تقل أهمية وقداسة بالنسبة لليهود عن هيكل سليمان والقدس ، إن لم تكن تزيد ، فعلى جبلها قابل

موسى الرب حيث أعطاه العهد لبنى إسرائيل (شعبه المختار) ، كما نزل الرب على الجبل أمام عيون بنى إسرائيل « لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء » [٢].

وتصور التوراة ماحدث فى اليوم الثالث فتقول « وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صار رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ، وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار ، وصعد دخان كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا ، فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت ، ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل ، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى [٣].

كذلك فقد ظل موسى عليه السلام يُذكِّر اليهود ، إلى آخر لحظة فى حياته بما لجبل سيناء ولسيناء كلها من قداسة « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته . فقال ، جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران » [٤]. فهل يمكن لعاقل أن يقول إنهم سيتركونها ؟

---

(٢) خروج ، إصحاح ١٩ ، فقرة ١١

(٣) خروج ، إصحاح ١٩ ، فقرات ١٦ - ٢١

(٤) تثنية ، إصحاح ٣٣ ، فقرة ١

كذلك فقد أصروا على أن تتضمن اتفاقية « كمب ديفيد » نصوصا تعترف لهم ببعض الحقوق التى تضمن لهم عدم انقطاع صلتهم بسيناء . وهم يحرصون أشد الحرص على زيارتها فى كل عام ؛ لكى يعمقوا الإحساس بالانتماء إليها ، ويؤكدوا ارتباطهم بها . ليس ذلك وحسب ، بل إنهم يروجون أكاذيب أخرى بشأن أماكن أخرى يزعمون أن لهم حقوقا فيها ، بعضها يقع فى الوجه البحرى ، والبعض الآخر يقع فى الوجه القبلى . من ذلك — وعلى سبيل المثال لا الحصر — قولهم : إنه كانت لهم مستوطنة دائمة ومستقرة فى جزيرة « الفنتين » عند أسوان ، وهو ماذكرته دائرة المعارف الأمريكية أو بالأحرى كاتبها اليهودى اللئيم الذى أرجع تاريخ إنشاء هذه المستوطنة إلى زمن الملك البابلى « نبوئذ نصر » الذى كان قد نفى اليهود من فلسطين فرحل بعضهم إلى مصر ، وكان بصحبتهم نبى لهم يدعى « جيريميا » . وأنهم ظلوا يقيمون بهذه المستوطنة من القرن السادس قبل الميلاد إلى أن حدث ماأسماه الكاتب بالخروج الأخير من مصر فى الفترة مابين عام ١٩٤٨م وعام ١٩٧٠م . وأن نبيهم « جيريميا » مدفون بالجزيرة أى أنها ، هى الأخرى ، مكان مقدس عندهم !!

وهكذا لن تفلت دولة من إدعاءات اليهود بوجود حقوق لهم فى جزء أو أكثر من أجزائها حتى هذه الدول الصليبية التى تقف الآن إلى جانب إسرائيل ضد العرب والمسلمين لن تفلت هى الأخرى ، كل مافى الأمر أن الوقت لم يحن بعد لخروج إسرائيل عليها بادعاءاتها ، ويوم تقوم إسرائيل الكبرى التى تمتد من النيل إلى الفرات ، بفضل تخاذل العرب وتهالكهم على الدنيا ، وبيعهم للآخرة ، وتخليهم عن

أعظم ميراث ورثته أمة من الأمم ـــ فسوف يكون الوقت قد حان بالنسبة لإسرائيل للانتقام من الغرب الذى وقف إلى جانبها وأيدها وأمدها بالسلاح لتفتك بنا .

لقد بلغت . اللهم فاشهد، والله الموفق

المؤلـــف